الفصل الثالث

جماعات الصفوة فى العالم الثالث

نظرية مجتمع الموزايكا التعددى

اذا كانت التعددية قد فهمت فى الفصل السابق على أنها تباين فى الأجزاء المكونة للنسق وفى أنماط الممارسة السياسية ومصادر القوة داخله ، فانها تفهم هنا بمعنى مغاير تماما . فالتعددية هنا تستخدم بمعناها الحرفى لتشير الى وجود جماعات عرقية وثقافية تعيش بجانب بعضها البعض الآخر مع قليل من الاتصال والتفاعل ، وكثير من الصراع تحت هيمنة جماعة سياسية واحدة .وهكذا يصور البناء الاجتماعى للمجتمعات الافريقية،ومجتمعات الشرق الأوسط ، ومجتمعات جنوب شرق آسيا على انه بناء يحوى فى داخله مظاهر عدم الاستمرار discontinuties والانشقاق cleavages ولا يعرف أى شكل من أشكال التكامل والاستمرارية . واذا ظهر التكامل والاستمرارية فانهما يجب أن يفرضا على البناء المنقسم من الخارج . وهكذا يبدو القهر وكأنه ضرورى ، وتحكم الصفوة وكأنه حتمى . والمجتمع التعددى وفق هذا المنظور يشبه قطعة الموزايكا ، التى تتكون من قطع صغيرة ذات الوان وأحجام ونوعيات مختلفة لا تستطيع أن تضعها بجوار بعضها الا يدى فنان . ولقد استخدم بعض أنصار هذا الاتجاه بالفعل ـ وكما سيتضح لنا أثناء العرض التالى ـ مصطلح « مجتمع الموزايكا Mosaic society ومصطلح « نظرية الموزايكا » Mosaic theory ، بينما فضل البعض الآخر استخدام مصطلح المجتمع التعددى Plural society ليشير الى نفس ما يشير اليه مصطلح مجتمع الموزايكا أو نظرية الموزايكا . ومن هنا جاء الجمع بين الاصطلاحين فى عنوان هذا الفصل .

وسوف ينصب الاهتمام فى هذا الفصل على الكشف عن الجذور الفكرية التى استمدت منها هذه النظرية اطارها المعرفى ، على أن يتم التركيز بعد ذلك على توضيح آراء انصار هذا الاتجاه حول الموضوعات الأساسية التى يدور حولها التحليل النظرى الذى نقدمه فى هذا الجزء من البحث ، ومدى انعكاس هذه الآراء على اتجاهات البحث الامبيريقى فى المجتمعات الريفية • هذا فضلا عن الكشف عن مدى ملاءمة هذا الاتجاه لدراسة جماعات الصفوة فى المجتمع الريفى ومدى صدقه الامبيريقى وذلك من خلال رؤية نقدية • وهكذا سوف يضم هذا الفصل العناصر الآتية :

أولا : الجذور الفكرية لنظرية مجتمع الموزايكا •

ثانيا : القضايا الأساسية لنظرية مجتمع الموزايكا •

ثالثا : اتجاهات البحث الامبيريقى فى المجتمعات الريفية •

رابعا : نقد نظرية مجتمع الموزايكا •

اولا : الجذور الفكرية لنظرية مجتمع الموزايكا

ترجع الجذور الفكرية لهذه النظرية الى أعمال كل من فيرنفال Furnivall عن جنوب شرق آسيا ، وكارلتون كون Carlton Coon عن الشرق الأوسط • غير أن هناك مجموعة من المؤثرات الأخرى التى أثرت على هدا الاتجاه بطريق غير مباشر ، نشير هنا الى بعض منها قبل أن نشير تفصيلا الى اعمال فيرنفال وكون :

١ ـ اشار بعض الباحثين المهتمين بموضوع التكامل فى دول العالم الثالث ، والذين اندرجت أعمالهم تحت الاتجاه النظرى الذى عالجناه فى الفصل السابق ، أشاروا الى وجود خلافات عرقية ودينية واقليمية فى المجتمعات الحديثة فى آسيا وافريقيا • فقد أشار جيلوفورد جيرتز الى سيادة ما أسماه « بالروابط البدائية » والتى تقوم على روابط الدم ، والعرق ، واللغة ، والدين والعادات (١) • وبنفس الطريقة وصف ادوارد شيلز المجتمعات التقليدية

---

(١) G. Geertz, op. cit., pp. 112-113.

بانها تتكون من تجمعات متفرقة تقوم على العرق ، والطائفة ، والمشاعية ، والدين واللغة • وهى تجمعات ليس لديها سوى شعور طفيف بالتوحد مع بعضها البعض أو مع الاطار القومى الذى تعيش فيه (٢) • وتشير هذه الآراء الى الرابطة التى يمكن أن تربط هذا الاتجاه بالاتجاه التعددى فى صورته التى عرضت فى الفصل السابق (٣) •

٢ ـ ركز علماء الاجتماع الذين يدرسون الاقليات على دراسة العلاقات بين الأجناس فى تحليلهم للبناء الاجتماعى فى المجتمعات المتقدمة • فقد كتب جـــونار ميـــردال Gunnar Myrdal عن وجود نمطين متصارعين من القيم فى المجتمع الأمريكى يرتبط كل منهما بجماعة معينة • ولقد ادت سيطرة أحد هذين النمطين على النمط الآخر الى ما أسماه ميردال « بالمعضلة الأمريكية » (٤) • ولقد أشار لويد وارنر ـ قبل ميردال ـ الى وجود نمط للتدرج الاجتماعى غير ذلك النمط القائم على الطبقة والمكانة ، وهو التدرج القائم على نظام الطوائف حيث يوجد ضرب من التوازن بين نوعية العرق والوضع الذى يحتله الشخص فى نسق التدرج الاجتماعى (٥) • واهتم جون ركس Rex الذى كتب ـ فى وقت مبكر ـ مقالا عن المجتمع التعددى (٦)

---

(٢) E. Shils, «On the Comparative Study of the New States», in Geertze (ed.), op. cit., p. 3.

(٣) يبدو أن قضية الانقسام العرقى قد ظهرت كقضية ثانوية فى الاتجاه التعددى الوظيفى ، حيث كان الاهتمام منصبا على تحليل التباين الاجتماعى ـ الثقافى • ولقد طور الباحثون الذين نهتم بآرائهم هنا هذه القضية الثانوية التى وصلت الى اتجاه تعددى جديد •

(٤) G. Myrdal, **The American Dilemma : Negro Problem and Modern Democracy**, Harper, New York, 1944.

(٥) L. Warner, «American Çaste and Classe» **A.J.S.**, Vol. 42, No. 2.1936, pp. 324-232.

(٦) J. Rex, «The Theory of Plural Society», **B.J.S.** Vol. 10. No. 1,1959, pp. 114-124.

Plural Society • باختبار نظرية ميردال فى دراسة ـ اجراما مع روبرت مور Moore ـ عن الصالح العرقية المتصارعة فى مدينة برمنجهام • وطور ركس فى هذه الدراسة مفهوم الطبقات السكنية housing classes الذى يقوم على أسس عرقية • فكل جماعة عرقية تتجمع فى نمط سكنى خاص، وتحاول بكل الوسائل أن تحد من فرص الجماعات الأخرى فى الحصول على الأرض أو أى خدمات أخرى (٧) •

٣ ـ يميل بعض الدارسين الى اعتبار بعض المجتمعات المتقدمة ـ خاصة كندا والولايات المتحدة ـ مجتمعات تعددية على أساس الفروق العرقية بين الجماعات الأساسية التى تعيش فى هذه المجتمعات • غير أنهم يذهبون الى القول بأن هذه المجتمعات قد حققت قدرا كبيرا من التكامل • ولقد انعكست هذه الرؤية النظرية على مجموعة من البحوث قدمت الى مؤتمر عن « **التعددية فى مجتمع ديموقراطى** Pluralism in a Democratic society عقد فى نيويورك عام ١٩٧٥ (٨) • فقد كان من أهداف المؤتمر التأكيد على أن الحياة الأمريكية تتكون من جماعات مختلفة تشبه الموزايكا ، تحتفظ كل منها بهويتها الخاصة ، وتساهم كل منها فى تنوع التراث الامريكى واثرائه فى ذلك الوقت • ولقد تم تحقيق التكامل بين هذه الجماعات تحت زعامة الصفوة الانجليزية التى وضعت أسس الهجرة الى امريكا ، وحمت القانون والدستور وحرية التدين والعبادة فى جو تنفصل فيه الكنيسة عن الدولة (٩) • وبالنسبة للمجتمع الكندى فقد تحدث جون بورتر عما أسماه بالموزايكا الرأسية ، حيث توجد علاقة بين التدرج الطبقى والتدرج السلالى ، الأمر

---

(٧) J. Rex and R. Moore, **Race, Community and Conflict,** Oxford University Press, London, 1967, p. 16.

(٨) ظهرت هذه البحوث فى المجلد التالى :

Milvin M. Tumin and W.P. Platch (eds.) **Pluralism in A Democratic Society,** Praeger Publishers, N.Y., 1977.

Ibid, The Introduction by M. Tumin, pp. V-Xiii

الذى أدى الى مزيد من الانقسام الثقافى والاقليمى ، يتكامل فقط من خلال حكومة فيدرالية مركزية (١٠) .

ومع ذلك فان أيا من هذه الاشارات لم تعتبر مشكلة الانقسام العرقى فى العالم الثالث مشكلة أساسية ، ولكن وجودها يشير الى أن المسألة مطروحة على أى حال ، كما يشير أيضا الى العلاقة التى تربط الاتجاه التعددى الوظيفى بالاتجاه التعددى العرقى . ذلك أن معظم هذه الاشارات والآراء قد ظهرت أساسا من داخل الاتجاه التعددى الوظيفى . ولقد دفع هذا بعض الباحثين الى تتبع مشكلة الانقسامات العرقية واللغوية والاقليمية فى مجتمعات العالم الثالث ليطوروا اتجاها تعدديا خاصا بهم . ولقد وجد هؤلاء الباحثون ـ وكما أشرت من قبل ـ فى أعمال فيرنفال وكارلتون كون ـ البداية التى اشتقوا منها موقفهم العرقى . وسوف أعرض هنا باختصار لآراء كل من فيرنفال وكون على أنها تمثل الجذور الفكرية لنظرية مجتمع الموزايكا التعددى .

كان فيرنفال أول من أشار الى مفهوم « المجتمع التعددى » وذلك فى دراسته عن أقاليم جنوب شرق آسيا المدارية . والمجتمع التعددى عند فيرنفال هو مجتمع لا توجد به جماعات متكاملة Corporate groups فلا يوجد لدى الافراد أهداف عامة أو جماعية . ففى مجتمعات جنوب شرق آسيا ـ ويعمم فيرنفال ذلك القول على كل المجتمعات المدارية ـ يتكون المجتمع من خليط من الجماعات العرقية التى « تختلط مع بعضها دون أن تقوم بينها رابطة » ، ذلك لأن كل جماعة تحتفظ بدينها الخاص ، ولغتها الخاصة ، وأفكارها وأساليب حياتها الخاصة . ولا تلتقى هذه الجماعات الا فى السوق حيث تتم عمليات البيع والشراء ، وهى بذلك تكون مجتمعا تعدديا تعيش فيه جماعات متلاصقة ـ ولكنها منقسمة على نفسها ـ داخل اطار سياسى واحد (١١) . وترتبط الطبيعة التعددية للمجتمع بالعوامل الآتية :

---

(١٠) J. Porter, **The Vertical Mosaic**, University of Toronto Press, 1965, p. 16.

(١١) J.S. Furnivall, **Colonial Policy and Practices : A Comparative Study of Burma and Netherlands India**, Cambridge University Press, 1948 p. 304.

١ ـ ارتباط الفرد بجماعاته السلالية ارتباطا يفوق ارتباطه بالمجتمع ككل ، وهكذا تعيش الجماعات العرقية كبناءات اجتماعية منفصلة أو مستقلة (١٢) ٠

٢ ـ يوجد على المستوى الاقتصادى نوع من تقسيم العمل الاقتصادى بين الجماعات العرقية المختلفة ، حيث تتخصص كل جماعة عرقية فى نوع معين من المنتجات ٠ وحتى داخل الجماعة الواحدة توجد جماعات فرعية تمارس كل منها حرفة معينة ٠ (١٣) ٠

٣ ـ وفى هذه الظروف ، لا توجد فى مثل هذا المجتمع ارادة جماعية ، ولا يتجسد الطلب بشكل جماعى ، طالما أن كل جماعة تهتم فقط بتحقيق مصالحها الخاصة (١٤) ٠

ومثل هذه الجماعات المتفرقة لا تكون مجتمعا الا اذا وجدت قوة تمكنها من أن تلتقى على كلمة سواء ٠ ويركز فيرنفال على السوق كأداة تكاملية فى المجتمع التعددى ٠ غير أن السوق لا يخلق مصالح مشتركة ، ولا يجمع الناس على أهداف عامة بحيث يظهر نوع من الطلب الجماعى ، فنظام السوق لا يلغى قانون « البقاء للأصلح » الذى يحكم هذه الجماعات التعددية ٠ (١٥) ويبدو أن فيرنفال يود أن يؤكد فى هذا الصدد على وجود « مشكلة نظام » ملحة فى مثل هذا النوع من المجتمعات ٠ فلابد أن يظهر شكل من أشكال التكامل بين كل هذه الجماعات المتفرقة ٠ ويتم ذلك ـ من وجهة نظر فيرنفال ـ من خلال حكومة فيدرالية مركزية ٠ ولا يتم ذلك بصورة عشوائية ، وانما يتم من خلال عملية مرحلية تلعب فيها مرحلة الحكم الاستعمارى دورا حيويا فى خلق التكامل ، وبعدها « تظهر مرحلة انتقالية

---

(١٢) J.S. Furnivall, Netherlands India : A Study of Plural Economy, Cambridge University Press 1963, p. 446.

(١٣) Furnivall, 1948, p. 305.

(١٤) Furnivall, 1963, pp. 306-310.

(١٥) Ibid. p. 449.

قبل أن تنتقل السلطة الى الحكومات الشعبية الوطنية » (١٦) • ومع ذلك نجد فيرنفال يؤكد ــ من الناحية النظرية ــ على أربعة مصادر للتكامل : الطائفة ، والقانون ، والقومية ، والنظام الفيدرالى (١٧) •

وجاءت الخطوة الثانية فى تطوير هذه النظرية من كارلتون كون فى دراسته الشهيرة عن الشرق الأوسط (١٨) • صور كون مجتمعات الشرق الأوسط على أنها مجتمعات تشبه القافلة المتحركة (الكارافان) • فهى صورة متعددة الألوان ، أو موزايكا متعددة الألوان • واساس هذا التعدد هو تقسيم العمل القائم على العرق أو السلالة ، حيث تمتهن كل جماعة عرقية بمهنة معينة ، ولقد كتب كارلتون كون فى هذا الصدد يقول :

« ينتظم الناس فى مجتمعات الشرق الأوسط فى نسق اجتماعى معقد يقوم على تقسيم العمل العرقى • فقد استطاع كل أعضاء جماعة أن يشتقوا لانفسهم تقنيات معينة ومهـارة يتقنوها اتقانا من الطراز الأول • وهم يحافظون على هذه التقنيات وتلك المهارة من خلال العيش سويا ، والاحتفال بالعطلات فى تجمعات مستقلة ، وتربية أطفالهم على فكرة أن عليهم أن يتعلموا حرفة معينة » (١٩) •

وأضاف فى مكان آخر :

« يشعر أعضاء كل وحدة عرقية بالحاجة الى توحيد أنفسهم مع تشكيل من الرموز ، فاذا كان لكل جماعة من هذه الجماعات تميز عرقى معين ، فان هذا التميز يتدعم من خلال أساليب سلوكية خاصة كان تتبع كل جماعة أسلوبا معينا فى قص الشعر ، وارتداء أنواع معينة من الحلى ، والسلوك بطريقة متميزة » (٢٠) •

---

(١٦) Furnivall, 1948, pp. 485-505.

(١٧) Furnivall, 1963, pp. 464-469.

(١٨) C. Coon, **CARAVAN : The Story of the Middle East,** Rinehart and Winston, N.Y. 1958, 1st published in 1951.

(١٩) Ibid., p. 3

(٢٠) Ibid., p. 157.

أما المصدر الثانى للتعددية فى مجتمعات الشرق الأوسط فانه يرتبط بوجود ثلاثة انماط متميزة من الجماعات المحلية المنعزلة بعضها عن البعض الآخر وهى : المخيم البدوى ، والقرية ، والمدينة • فكل وحدة من هذه الوحدات تبدو وكأنها مستقلة عن الوحدات الأخرى ، بل اننا يمكن أن نعثر داخل وحدة معينة منها على جماعات مختلفة منقسمة بعضها على البعض الآخر ، ولا يوجد بين هذه الوحدات الثلاثة سوى قدر طفيف من الاتصال (٢١) • ويبقى مصدر ثالث لهذه الوحدات الثلاثة سوى قدر طفيف من بالانقسام بين ما يطلق عليهم كون « أهل الوداعة » tames « وأهل العجـــرفة » insolent • القسم الأول هم جموع السكان الخاضعين للسلطات داخل كل وحدة اجتماعية من الوحدات الثلاثة سالفة الذكر ، أما القسم الثانى فهم سكان المرتفعات الذين يطورون نوعا من الحكم الذاتى ويشكلون مصدر خوف وقلق للسلطة الحاكمة مثل الدوروز والاكراد والبربر (٢٢)

وكل هذه الانقسامات هى التى تحول مجتمعات الشرق الأوسط الى ما يشبه « القاطلة المتحركة » ، او لوحة الموزايكا التى تحوى الوانا متعددة • والحكومة المركزية هى التى تلم شمل مثل هذا المجتمع • ويذهب كون فى هذا الصدد الى القول بأن حكومات مجتمعات الشرق الأوسط التقليدية تقوم على نفس المبادىء التى يقوم عليها بناء القرية او المدينة ، فكل حكومة تتكون من مجموعات من الافراد لكل جماعة منها حياتها الخاصة ، وتوازنها الداخلى الخاص بها • ولا يجتمع هؤلاء الافراد سويا الا بدافع الحاجة المشتركة للتجـارة والدفـاع (٢٣) • الحكومة تتكون اذن من مجموعة من الصفوات تحقق بينها توازنا داخليا يسير على نفس خطوط التوازن التى يقوم عليها توازن مجتمع القرية أو المدينة • ويتضمن ذلك القول بأن جماعات الصفوة فى الوحدات المحلية والحضرية والبدوية تقوم على نفس المبادىء التى تقوم عليها الحكومة المركزية ، فهى جماعات تجمعها فقط المصالح المشتركة مع

---

(٢١) Ibid., p. 171-196.

(٢٢) Ibid., pp. 292-321.

(٢٣) Ibid., p. 264.

الاحتفاظ بالاطار الانقسامى الذى تعيش فيه • واذا كان النسق السياسى ـ سواء فى مستواه القومى أو المحلى ـ هو النسق الأساسى فى تحقيق التكامل فى هذا النوع من المجتمعات ، الا أن هناك بعض الميكانيزمات الاجتماعية الأخرى التى تسهم فى تحقيق التكامل منها : نظام الزكاة ، والتنظيمات الصوفية التى يجتمع فيها أفراد ينتمون الى جماعات عرقية مختلفة ، وكذلك الطقوس المتوارثة التى تجمع عناصر مختلفة من ديانات مختلفة (٢٤) •

ولقد تبنى بعض المهتمين بمجتمعات جزر الهند الغربية West indies ومجتمعات افريقيا مفهوم فيرنفال عن المجتمع التعددى محاولين تطبيقه على هذه المجتمعات ، بينما تبنى بعض المهتمين بمجتمعات الشرق الأوسط رؤية كارلتون كون عن مجتمع الموزايكا محاولين تطويرها وتطبيقها على البناء الاجتماعى المعاصر لهذه المجتمعات • وتبلورت بناء على ذلك مجموعة من الآراء النظرية التى شكلت الاتجاه الذى نعرض له فى هذا الفصل• وسوف أعرض فيما يلى للقضايا الأساسية التى تشكل الاطار النظرى لنظرية مجتمع الموزايكا التعددى •

ثانيا : القضايا الأساسية لنظرية مجتمع الموزايكا

ظهرت الأعمال التى تندرج تحت هذه النظرية ـ وكما هو واضح من العرض السابق ـ فى مجموعتين : أعمال الباحثين الذين اهتموا بمجتمعات افريقيا ومجتمعات جزر الهند الغربية ، وأعمال الباحثين الذين اهتموا بمجتمعات الشرق الأوسط • ومن الباحثين الذين ينتمون الى المجموعة الأولى م • ج سميث M. G. Smith وليوكيوبر Leo Kuper وفان دن برج Van Den Berghe وغيرهم ممن اهتم بمجتمعات افريقيا،أما المجموعة الثانية فتضم نيوفانهويزه Nieuwenhuijze وايليا حريق وغيرهم ممن اهتموا

---

(٢٤) Ibid. p. 163.

بمجتمعات الشرق الأوسط (٢٥) • وبرغم أن هاتين المجموعتين تعملان بشكل مستقل ، الا أن الآراء التى ظهرت هنا وهناك متشابهة الى حد كبير على ما سيظهر من العرض القادم ، الذى ينصب على ابراز آراء هؤلاء الباحثين حول القضايا الأساسية التى نهتم بها فى هذا التحليل النظرى :

(أ) الرؤية العامة للبناء الاجتماعى لمجتمعات العالم الثالث ،
(ب) شكل التدرج الاجتماعى والجماعات الطبقية داخل هذا البناء ،
(جـ) الطابع الذى يتشكل من خلاله البناء السياسى وجماعات الصفوة •

(أ) البناء الاجتماعى لمجتمع الموزايكا

يجمع أنصار هذا الاتجاه على أن مجتمعات العالم الثالث فى افريقيا وآسياوأمريكااللاتينية تتسم بأنهامجتمعات متعددةالفئات muiti-categorical فهى تضم تجمعات متفرقة من الافراد تعيش داخل نطاق سياسى واحد • ويكمن جوهر التعددية فى نظر سميث فى وجود خلافات عميقة الجذور بين افراد المجتمع ، تنبع أساسا من اختلاف ثقافاتهم ، وأشكال ممارساتهم النظامية • وينعكس ذلك على البناء الاجتماعى فتتضح فيه مظاهر عدم الاستقرار ومظاهر الانشقاق (٢٦) • وأكد على نفس هذا الطابع نيوفانهويزم فيما يتعلق بمجتمعات الشرق الأوسط • فهذه المجتمعات لا تمتلك أبنية اجتماعية مستقرة طالما أن المجتمع يتكون من وحدات مستقلة ذات أبنية متوازية أكثر منها متفاعلة • ومصدر ذلك هو وجود خلافات فى العقيدة،واللغة

---

(٢٥) سوف أشير للجماعة الاولى بـ « مجموعة افريقيا » وللجماعة الثانية « بمجموعة الشرق الأوسط » ، مع الاشارة الى اسم أى من الباحثين فى كلتا المجموعتين •

(٢٦) M.G. Smith, «Institutional and Political Conditions of Pluralism» in L. Kuper and M.G. Smith (eds.) **Pluralism in Africa**, University of California Press, Los Angelos, 1969, p. 27.

والمنطقة الجغرافية التى تعيش فيها كل جماعة • ويتصف هذا المجتمع بأنه مجتمـــع مركب composite • وبعبارة اخرى فانه مجتمع يتكون من وحدات تم تجميعها بجوار بعضها البعض ، بحيث تحافظ كل وحدة على تكاملها الداخلى ، واستقلالها الذاتى ، وحدودها ككيان ثقافى (٢٧) •

ويعتقد الباحثون من مجموعة افريقيا أن صيـاغتهم لمفهوم المجتمـع التعددى تختلف عن صياغة فيرنفال من حيث أنها تقدم نموذجا اكثر مرونة واكثر عمومية ، فضلا عن حيادة القيمى (٢٨) • ولقـد جاء هـذا الادعاء بالعمومية من التفرقة التى أقامها سميث بين ثلاثة مستويات للتعددية : التعددية الثقافية ، والتعددية الاجتماعية ، والتعددية البنائية • وتشير التعددية الثقافية الى وجود فروق ثقافية دون وجود انقسام جمعى فى المجتمع• وعندما تلتقى هذه الفروق الثقافية مع الانقسامات الاجتماعية بين جماعات مغلقة فاننا نكون بصدد المستوى الثانى من التعددية • أما المستوى الثالث فانه لا يشير فقط الى الانقســامات والخلافات التى توجـد بين الجماعات الأساسية فى المجتمع ، وانما يشير أيضا الى مظاهر الانقسام والخلاف داخل كل جماعة على حدة (٢٩) • وفى ضوء هذه المستويات الثلاثة ، تعرف المجتمعات كلها درجة من درجات التعددية ، وتأتى الفروق بين المجتمعات فى درجة الانقسام ومعدله • ويبدو أن سميث يريد هنا ان يلصق المستوى الثـانى والمستوى الثالث للتعددية بمجتمعات العالم الثالث التى يبلغ فيها الشقاق

---

(٢٧) C.A.O. Van Nieuwenhuijze, **Social Stratification and The Middle East**, Leiden, Brill, 1965, pp. 9-10.

(٢٨) Leo Kuper, **Race, Class and Power**, Buckworth, 1974, pp. 239-240.

(٢٩) M. G. Smith, «Some Development in the Analytical Framework of Pluralism», in Kuper and Smith (eds.) **op. cit.**, p. 440.

بين الجماعات العرقية مداه (٣٠) • فى حين توجد التعددية بمعناها الأول فى المجتمعات الغربية المتقدمة والتى تعنى النسبية الثقافية ، وهى نمطا مثاليا يجب أن تصبو المجتمعات التى تعرف أشكالا مغايرة للتعددية الى الوصول اليه •

وتقترب مجموعة الشرق الأوسط من هذا الموقف السابق • فتقسيم العمل العرقى الذى أبرزه كارلتون كون ليس المصدر الأساسى للتعددية فى مجتمع الوزايكا ، بل هناك أيضا الخلافات الدينية واللغوية والجغرافية فضلا عن الصراع على السلطة • وتتوازى هذه الانقسامات جميعا بحيث اذا ظهرت لدى جماعة خاصية عرقية معينة تظهر لديها خصائص أخرى كأن تتحدث لغة معينة وتعيش فى نطاق جغرافى معين وتتدين بدين معين (٣١) • ولكن مجموعة الشرق الأوسط قد أكدت على صياغة كارلتون كون فيما يتعلق بالوحدات الأساسية التى يتكون منها البناء الاجتماعى والانقسامات التى تعرفها هذه الوحدات • فقد فرق نيوفانهويزه بين نوعين أساسيين من الانقسامات فى مجتمعات الشرق الأوسط • النوع الأول : هو الانقسامات الافقية بين الوحدات الأساسية التى يتكون منها المجتمع (المجتمع الريفى والمجتمع الحضرى والمجتمع البدوى) ، والنوع الثانى : هو الانقسامات الرأسية داخل كل وحدة من هذه الوحدات • وأهم هذه الانقسامات الرأسية

---

(٣٠) يؤكد بعض الباحثين من مجموعة افريقيا أن مجتمعات افريقيا تعرف التعددية بمستوياتها الثلاثة • منهم على سبيل المثال على مازروى Ali Mazrui الذى ذهب الى القول بأن أوغندا يمكن أن تؤخذ كمثال طرازى على وجود التعددية بمستوياتها الثلاثة العرقية والثقافية الدينية والاجتماعية • انظر :

Ali Mazrui «Pluralism and National Integration» in Ibid. p. 332.

(٣١) Iliya Harik, «The Ethnic Revolution and Political Integration in the Middle East», I.J.M.E.S. Vol. 3, 1972, pp. 306-8.

هو الانقسام بين الصفوة والجماهير ، وهو انقسام يظهر داخل كل وحدة من مكونات البناء الاجتماعى ، وداخل البناء الاجتماعى برمته (٣٢) ٠

ويتضح من هذا أن هناك اجماعا بين أنصار هذا الاتجاه على الخصائص العامة التى تميز البناء الاجتماعى فى مجتمع الموزايكا التعددى ، تلك الخصائص التى تنحصر فى عدم التجانس وعدم التكامل وعدم الاستمرارية وسيادة مظاهر الشقاق والخلاف بين الجماعات التى تكون البناء الاجتماعى ٠ والمحقق أن أنصار الاتجاه الوظيفى التعددى قد أكدوا كل هذه الخصائص ، غير أن الخلاف بينهم وبين أنصار نظرية مجتمع الموزايكا ينحصر فى أنهم قد أرجعوا هذه الخصائص الى تباين مكونات البناء الاجتماعى الناتج عن استجابة هذا البناء للثقافة الحديثة والنظم الحديثة ، وبهذه الطريقة أصبحت ظاهرة الانقسام العرقى ظاهرة لاحقة epiphenomenon فى تحليلاتهم ٠ أما أنصار نظرية مجتمع الموزايكا فانهم يعتبرون ظاهرة الانقسام العرقى ظاهرة أصلية وجوهرية sui-generis فى البناء الاجتماعى للمجتمعات النامية ، ومن ثم فانها السبب الكامن خلف أى مظهر للانقسام وعدم التكامل والاستمرارية فى هذه المجتمعات ٠ ومع ذلك فان هناك مصدرا للتشابه بين شقى الاتجاه التعددى يرتبط بتحول نمط معين من المجتمع التعددى الى نمط آخر يصور على أنه نمط مثالى ٠ فقد لاحظنا فى الفصل السابق أن الصورة المثلى التى يجب أن تتحول اليها المجتمعات النامية هى صورة المجتمع التعددى الديموقراطى ، ويتضح هنا أن أنصار نظرية مجتمع الموزايكا يميلون الى المقارنة بين المجتمعات التى تتوازى فيها الانقسامات العرقية مع الانقسامات الثقافية والاجتماعية ، وتلك التى لا تظهر فيها مثل هذه الانقسامات والتى تتكامل فيها الجماعات العرقية مع وجود قدر من النسبية الثقافية ، وهذه هى الصورة المثلى للمجتمع التى يجب على مجتمع الموزايكا

---

(٣٢) Nieuwenhuijze, op. cit., pp. 20-49.

أن يتوق الى الوصول اليها ، وتتجسد هذه الصورة المثلى فى المجتمعات الغربيـة الديموقراطيـة • ويدل ذلك على أن المنطـلق الايديولوجى لكـلا الاتجاهين واحد ، برغم اختلاف بعض الأسس المعرفية لكل منهما •

(ب) التدرج الاجتماعى والجماعات الطبقية :

طالما أن المجتمع التعددى هذا يقوم على الانقسم العرقى ، فانه يترتب على ذلك أن يكون للتدرج الاجتماعى داخله طابع خاص ، يرتبط بطابعه التعددى • فمن الطبيعى أن يؤكد الباحثون هنا على وجود خطوط للتدرج الاجتماعى لا تقوم على أساس طبقى ، بل تقوم على أساس عرقى ، حيث • يظهر نوع من التوازن بين التكوين الطبقى للمجتمع وتكوينه العرقى • وفى هذه الظروف ، فان تحول المجتمع وتحديثه وتكامله يرتهن بظهور نسـق للتدرج الاجتماعى الطبقى داخل هذا المجتمع بحيث تظهر خطوط للانقسـام غير تلك القائمة على العرق •

ومن هذا المنطلق العام يذهب ليوكيوبر ـ من مجموعة افريقيا ـ الى أن المواجهة الرئيسية فى المجتمع التعددى ليست مواجهة بين الطبقات ، وانمـا بين جنس race مسيطر وجنس أو أجناس خاضعة • وهذا هو السبب وراء عدم تضامن الطبقة العاملة فى هذه المجتمعات ، ووراء الخلافات الحادة التى تظهر بين أعضائها • فهذه الطبقة تتكون من جماعات عاملة من أجناس مختلفـة أو جماعات سلالية مختلفة تكن العداء لبعضهـا البعض الآخر • والظاهر أن ليوكيوبر يرفض مفهوم الطبقة كمقولة تحليلية لهذه المجتمعات حيث كتب يقول :

« ان التأكيد على الطبقة مقبول تماما ومن وجهة النظر السياسية والايديولوجية •• أما على مستوى النظرية •• فان مفهومى الجنس والطبقة

يختلفان الى حد كبير ٠٠ ومن الصعب أن نفهم التبرير الكامن خلف اعتبار المفاهيم المرتبطة بالطبقة مفاهيم حاسمة » (٣٣) ٠

وبناء على ذلك يرفض كيوبر نظام التدرج الاجتماعى القائم على الطبقة ويستبداله بالتدرج القائم على العلاقات العرقية ٠ ويصبح ذلك الأخير متغيرا ذا دلالة عندما يتحول الى مبدأ تنتظم حوله النظم السياسية الاجتماعية (٣٤) ٠ وفى هذه الحالة يتحدد التدرج الاجتماعى من خلال العلاقات بين الجماعات العرقية ، وتتحول علاقات المكانة والطبقة الى مرتبة أدنى ٠

ومع ذلك ، فان بعض أعضاء جماعة افريقيا يميلون الى اضافة العلاقات الطبقية كمصدر آخر من مصادر الانشقاق فى المجتمعات التعددية ٠ فقد كتب فان دن برج يقول : « افضل النظر الى التعددية كمتغير يشتمل على مظاهر للتدرج قائمة على « الجنس » أو « الطائفة » أو الطبقة المغلقة أو الطبقة ٠٠ وطالما أن الطبقات تعد بمثابة جماعات متكاملة Corporate groups فانهاسوف تطور بعض الخلافات البنائية فضلا عن وجود بناء تنظيمى خاص يرتبط بكل طبقة » (٣٥) ٠ ويبدو أن ظهور التدرج الطبقى فى المجتمع التعددى الذى تقوم التعددية فيه على الانقسام العرقى ، يرتبط بتحول هذا المجتمع من المجتمع التقليدى الى المجتمع الحديث ٠ وبرغم أن ظهور التدرج الطبقى يعمل كاداة تكاملية حيث يجتمع ـ فى طبقة واحدة ـ أفراد من جماعات سلالية مختلفة ، الا أن الطبقة لا تعد مقولة تحليلية ذات أهمية طالما أن هؤلاء الافراد يظهرون من الولاء لجماعتهم العرقية أكثر مما يظهرونه للطبقة التى ينتمون اليها ٠ ولا تصبح الطبقة مقولة تحليلية الا اذا تعدى الولاء لها ـ أو توازى على الأقل مع ـ الولاء للجماعة العرقية ٠

---

(٣٣) Leo Kuper, 1974, p. 224.

(٣٤) Ibid., p. 224.

(٣٥) Van Den Berghe, «Pluralism and Polity : A Theoretical Explanation», in Kuper and Smith (eds.) op. cit., p. 68.

وتميل مجموعة الشرق الأوسط الى تبنى وجهة نظر مشابهة فالفكرة الأساسية التى يدور حولها رأى فان نيوفانهويزه تتركز حول القول بأن مجتمعات الشرق الأوسط لا تعرف التدرج الطبقى بسبب التعددية الضاربة بجذورها فى هذه المجتمعات ، والتى تقوم على الانقسام السلالى واللغوى والعرقى والاقليمى (٣٦) . والنمط التدرجى الذى تعرفه هذه المجتمعات هو ذلك النمط القائم على الانفصال بين الصفوة والجماهير (٣٧) . ويظهر ذلك الانقسام على المستوى القومى ، وعلى مستوى كل وحدة اجتماعية من الوحدات المكونة للبناء الاجتماعى . ويظهر هذا النمط من التدرج بسبب عاملين رئيسيين (٣٨) :

الأول : انه بالرغم من وجود ارهاصات بداية تكون طبقة وسطى فى مجتمعات الشرق الأوسط ، الا أن هذه الطبقة لم تظهر بعد بشكل يجعلنا نصفها بأنها طبقة مستقلة . وتتمثل ارهاصات هذه الطبقة فى طبقة «الافندية» وفئات الفنيين والبيروقراطيين والمثقفين ، وهى فئات لم تتشكل بعد بشكل جيد ، ولم تحقق أى منها أى قدر من التماسك الداخلى .

الثانى : أن مجتمعات الموزايكا التعددية التى تتكون من فئات مشتتة لاتتشكل

---

(٣٦) لما كان نيوفانهويزه قد عنون مقاله المطول « التدرج الاجتماعى والشرق الاوسط » فانه ذهب الى القول بأنه كان من الافضل له أن يبحث عن كلمة اخرى غير كلمة التدرج لانها لا تصدق مائة بالمائة على الشكل الذى يتشكل به المجتمع فى الشرق الاوسط ، ولعدم وجود مفاهيم بديلة، فقد قرر استخدامها مع قدر كبير من التحفظ والحذر . انظر مقاله السابق الاشارة اليه ، ص ١١ .

(٣٧) استخدم نيوفانهويزه مفهوم « صفوة القوة » ، غير أنه لم يستخدمه بنفس استخدام رايت ميلز ، من حيث أن صفوة القوة عند نيوفانهويزه قد تكون أقلية سلالية .

(٣٨) Nieuwenhuijze, op. cit., pp. 25 ff.

فيها طبقة عاملة • ولقد أورد نيوفانهويزه الاسباب التالية لعدم تشكل هذه الطبقة فى مجتمعات الشرق الأوسط :

(أ) سوف لا يؤدى انتشار التكنولوجيا الى احداث استقطاب فى المجتمع البدوى • وحتى اذا حدث هذا الاستقطاب بين طبقة البروليتاريا وبين طبقة البرجوازية ، فان الاولى لن تثور على الثانية التى تمثل صفوة القوة القائمة والتى تستمد قوتها من أطر تقليدية •

(ب) يبدو الموقف فى القرية وكأنه يحمل بين طياته عناصر من العبودية Serfdom • فعلاقة الفلاحين بكبار الملاك لا تقوم أصلا على علاقة عداء وانما تقوم على علاقة ولاء •

(جـ) ان الجماهير الغفيرة الموجودة فى المدن ليسوا عمالا فى تركيبهم العقلى ، وان كانوا يعملون فى مهن عمالية ولقد كانت هذه الجماهير موجودة منذ أمد بعيد حتى قبل الصناعة الحديثة •

ويبدو الأمر هنا وكأن نيوفانهويزه يحاول ان يربط بين ظهور الطبقة الوسطى وبين حدوث الاستقطاب • وكأن تبلور الاستقطاب الطبقى يفرض ظهور فئة وسطى وهو أمر يلغى فكرة الاستقطاب ذاتها • وعلى أية حال فانه يسعى هنا الى اثبات فكرته الأساسية عن الانفصال بين الصفوة والجماهير • فالصفوة لم تتحول الى طبقة عليا ، ولم تتطور من بين صفوف الجماهير طبقة عاملة توجه التدرج فى خط مغاير • على أن اشارة نيوفانهويزه الى ارهاصات وجود الطبقة الوسطى قد يفسر على أن هذه الطبقة الجديدة هى التى ستخلق الاستقطاب وتكون أحد أطرافه • ففى الوقت الذى تتشكل فيه هذه الطبقة ، فان الصفوة التقليدية ستترك لها زمام الأمور ، وتصبح الطبقة الوسطى بمثابة صفوة جديدة حاكمة •

ويرتبط نمو الطبقة الوسطى بتحول المجتمع من اطاره التقليدى الى

الاطار الحديث ، وان كان هذا النمو للطبقة الوسطى لا يلغى الانفصال التقليدى بين الصفوة والجماهير ، ولا يلغى تماما الطابع التعددى لمجتمع الموزايكا • وقد ذهب ايليا حريق هذا المذهب فى دراسة حديثة عن التعبئة السياسية فى الريف المصرى (٣٩) • يوافق حريق على رأى نيوفانهويزه المتعلق بالانقسام بين الصفوة والجماهير ، الا أنه يقرر أن مجتمعات الشرق الأوسط قد عرفت بعض قطاعات الطبقة الوسطى • ففيما يتعلق بالمجتمع القروى ـ على سبيل المثال ـ نجد أن ظهور ملاك الأرض ، وتجار الحاصلات الزراعية الذين أصبحوا أكثر ارتباطا بالمراكز الحضرية ، الى الجانب تغيرات أخر (مثل تحول معظم السكان الى زارعين بالمشاركة ، ومؤاجرين وعمال زراعيين وصغار ملاك) كل هذه الظروف أدت الى خلق نسق للتدرج الاجتماعى داخل القرية تحتل فيه الفئات الوسطى مكانا بارزا (٤٠) • ولقد ترتب على ذلك ـ ضمن تغييرات أخر ـ أن أصبح الريفى أكثر تكاملا مع المجتمع الحضرى ، ومع الاطار القومى بعامة • ومع ذلك فان ظهور التدرج الطبقى لا يلغى الطابع الأساسى لمجتمع الموزايكا القائم على الانقسام الاقليمى والسلالى واللغوى ، بل انه يضيف عنصرا جديدا الى هذا الطابع ، بحيث تصبح مظاهر الانقسام أكثر تعددا ، وتصبح عملية فرض الوحدة على هذا التعدد أمرا ضروريا ، على ما سنرى فيما بعد •

(جـ) البناء السياسى وجماعات الصفوة :

لاشك ان بناء اجتماعيا بهذا الشكل المتعدد يفرض مشكلة نظام ملحة • فلكى تشكل هذه الوحدات المكونة للبناء الاجتماعى مجتمعا لابد أن يحدث بينها قدر من التكامل يجعل قيام المجتمع أمرا ممكنا • فما الذى

---

(٣٩) I. Harik, **The Political Mobilization of Pesants : A Study of an Egyptian Community**, Indiana University Press, Bloomington and London, 1974.

(٤٠) Ibid., p. 18.

يحقق هذا التكامل داخل مجتمع الموزايكا اذن ؟ يكاد الدارسون يجمعون على أن مجتمع الموزايكا يحقق تكامله ـ على المستوى القومى والاقليمى على حد سواء ـ من خلال قوة خارجية قهرية ، تتمثل فى جماعة صفوة • غير أن رؤية طبيعة هذه الصفوة والشكل الذى تتكون من خلاله تختلف من مجموعة الى أخرى •

فمجموعة افريقيا تفرق بين مجتمع الموزايكا التعددى اللامتجانس وبين المجتمع التعددى المتجانس • ففى هذا الأخير يقوم النظام الاجتماعى العام على ما يطلق عليه سميث الاندماج المتماثل uniform incorporation ، أما فى مجتمع الموزايكا فان النظام الاجتماعى العام يقوم على الاندماج المتوازى أو التباينى equivalent or differential incorporation • وفى مثل هذا المجتمع لا تقوم النظم السياسية على التكامل • وانما تقوم على التنظيم regulation بمعنى أن النظم السياسية لا تنتج من طابع تكاملى كامن فى بناء المجتمع ذاته ، وانما تظهر أساسا لتحقيق هذا التكامل • ويترتب على ذلك أن تهيمن على هذه النظم صفوة معينة • وتتكون هذه الصفوة فى الغالب من «أقلية عددية متميزه ثقافيا » Culturally distinct numerical minority وهى كجماعة مشتركة لها مطلق الحرية فى حفظ النظام • وطالما أن سكان مجتمع الموزايكا التعددى لا يعتبرون مواطنين تحت حكم هذه الصفوة ، وانما خاضعون ، فان الدولة فى هذه الحالة لا تعبر عن رأى جمعى ، وانما تعمل بمثابة هيكل خارجى من صنع الجماعة المسيطرة (٤١) • وطالما أن الصفوة الحاكمة أو الاقلية الحاكمة تستمد شرعيتها من وجود الانقسامات فى المجتمع التعددى ، فان استمرارها يرتبط باستمرار هذه الانقسامات (٤٢) • وكأن استمرار الانقسامات يعمل كمستلزم أساسى لاستمرار الاقلية فى الحكم •

---

(٤١) M. G. Smith, «Institution ٤ ٤ ، op. cit., pp. 32-33

(٤٢) Ibid., p. 54.

وذلك لأن هذه الاقلية ما هى الا أحد الجماعات الثقافية المتميزة التى تتمتع بنفوذ اقتصادى وسياسى • هذا فضلا عن أن تحول المجتمع يجب أن يسير نحو التكامل القائم على الاندماج المتماثل حيث تصبح كل الجماعات العرقية على قدم المساواة وحيث يصبح النظام السياسى نتيجة طبيعية للتكامل ، وليس أداة لفرضه •

ويتفق نيوفانهويزه مع سميث على سيطرة الصفوة على الجهاز السياسى فى مجتمع الموزايكا ، غير أنه يختلف معه حول طبيعة هذه الصفوة أو الجماعة المسيطرة • فهى عنده أغلبية متميزة ثقافيا ، وليست أقلية متميزة ثقافيا • فالجماعة العرقية التى تمثل الاغلبية الديموجرافية فى المجتمع هى التى تسيطر على مقدرات النظام السياسى (٤٣) • ولأن هذه الجماعة العرقية المسيطرة تعتبر أغلبية ديموجرافية ، فانها لا تشكل جميعها الصفوة الحاكمة أو صفوة القوة ، وانما تنحدر تلك الأخيرة من الاغلبية الديموجرافية التى تكون الجماعة العرقية المسيطرة (٤٤) • ويتضمن ذلك القول بأن بقية الجماعات العرقية تتحول الى مجرد أقليات داخل مجتمع الموزايكا التعددى • وتصبح مهمة الصفوة خلق التكامل بين وجود هذه الاقليات وبين وجودها كمدافع عن مصالح الاغلبية الديموجرافية فى المجتمع • هذا فضلا عن تحقيق التكامل بين وحدات البناء الاجتماعى المنعزلة : المجتمع البدوى ، والمجتمع الريفى ، والمجتمع الحضرى ، وتحقق الصفوة هذا التكامل من خلال السيطرة التى تتبدى فى استخدام القوة الفيزيقية force ، غير أنها تحاول فى ذات الوقت خلق ضرب من ضروب التوازى الثقافى ـ الاجتماعى بين الكيانات

---

(٤٣) Nieuwenhuijze, op. cit, p. 9.

(٤٤) ولقد اقترب نيوفانهويزه هنا من صياغة سميث حيث ذهب الى أن هذه الصفوة تتحول فى الممارسة العملية الى أقلية عددية ولكنها أقلية عددية لا تمثل جماعة عرقية متميزة ، وانما تنحدر من الجماعة التى تكون الاغلبية الديموجرافية فى المجتمع •

المكونة للمجتمع • ومن أهم سمات جماعة الصفوة هذه أنها فئة مستهلكة وليست منتجة ، فهى تقوم بتقديم خدماتها فى المحافظة على النظام العام فى المجتمع نظير حصولها على جانب من ثروة المجتمع (٤٥) • ولكن ذلك لا يعنى أن الصفوة جماعة متكاملة فى حد ذاتها ، انها تخضع كجماعة لقاعدة المجتمع التعددى ، فيظهر بين اعضائها تنافس للحصول على الثروة •

ولكن تركيب الصفوة فى مجتمع الموزايكا قد يتجاوز مرحلة سيطرة الصفوة المنحدرة من الاغلبية الديموجرافية ، بحيث يعكس التركيب العرقى فى المجتمع • ويحدث هذا عندما يحقق المجتمع التعددى درجة ملحوظة من التكامل • فقد ذهب ايليا حريق فى حديث عن المجتمع اللبنانى ـ وهو عنده نموذج لما يجب أن تكون عليه مجتمعات الشرق الأوسط ـ الى أن الثورة فى مجال الاتصال فضلا عن نشأة الدول الحديثة قد أدت الى كسر نمط الموزايكا القائم حيث خلقت هذه الظروف صفوة عمقت الانفصال التقليدى بين الصفوة والجماهير ، وعمقت فى ذات الوقت وعيها بهويتها ، الأمر الذى ادى الى مزيد من الانقسام فى مجتمع الموزايكا • ومن ناحية أخرى لم تؤد الحركات القومية الى تحقيق التكامل فى مجتمع الموزايكا ، بل عمقت الخلاف من زاوية جديدة تتعلق بالصراع الفكرى والايديولوجى • وفى هذه الظروف لابد أن يتحقق التكامل من خلال توازن بين الجماعات العرقية المختلفة الموجودة فى المجتمع • ويتم ذلك عن طريق ضرب من ضروب الهندسة الاجتماعية يتم من خلاله تمثيل كل الجماعات العرقية ـ بنسب مختلفة ـ فى الصفوة الحاكمة • وفى هذه الحالة تصبح الصفوة انعكاسا للمجتمع وليست شيئا مفروضا عليه من الخارج • والمثال الطرازى على هذا النوع من الهندسة الاجتماعية هو نظام الحكم فى لبنان الذى يقوم على التوازن بين المسلمين والمسيحيين

---

(٤٥) Ibid., p. 52.

كجماعتين عرقيتين رئيسيتين فى المجتمع اللبنانى وهو مثال يجب أن يحتذى فى كل مجتمعات الشرق الأوسط (٤٦) ٠

ويثير حديث ايليا جريق هنا نقطة أخرى تتصل بتصور انصار نظرية مجتمع الموزايكا للصورة المثلى التى يجب أن يتحول اليها مجتمع الموزايكا ٠ الحقق أن صورة المجتمع الغربى الذى حقق قدرا كبيرا من التجانس والتكامل هى الصورة المثالية والمعيارية التى يجب أن يصل اليها مجتمع الموزايكا ٠ ولقد اهتمت مجموعة افريقيا أكثر من مجموعة الشرق الاوسط بالحديث عن النمط المثالى الذى يجب أن يصل اليه المجتمع التعددى ٠ وقد أشرت من قبل الى التفرقة التى أقامها سميث بين النظام العام الذى يقوم على الاندماج المتماثل وذلك الذى يقوم على الاندماج المتوازى ٠ ويمثل النمط الأول الصورة المثالية التى يجب أن يتحول اليها النمط الثانى ٠ ويتم ذلك من خلال مجموعة من الاجراءات أهمها قبول فكرة المساواة السياسية والاجتماعية كجزء من النظام القائم ، والتقليل من الامتيازات الممنوحة لجماعات عرقية معينة ، واعطاء فرص متساوية لكل المجموعات الثقافية فى المجتمع ، وأولا وأخيرا نشر الافكار المتصلة بالحرية والديموقراطية (٤٧) ٠ وبنفس الطريقة يؤكد ليوكيوبر على تحول المجتمعات التعددية من مجتمعات لا تعرف الاستمرارية والمساواة الى مجتمعات مستقرة مستمرة العلاقات بها قدر كبير من المساواة بين جماعاتها العرقية المختلفة ، الأمر الذى يؤدى الى تحول البناء السياسى من بناء يقوم على فرض القوة فرضا الى بناء يقوم على توزيع القوة (٤٨) ٠ وبعبارة فان دن برج فان هذه المجتمعات التعددية يجب أن

---

(٤٦) I. Harik, «The Ethnic Revolution., op. cit., p. 306

(٤٧) M.G. Smith, «Institutional op. cit, p. 60.

(٤٨) Leo Kuper, «Ethnic and Racial Pluralism», op. cit., pp. 469-79.

تتحول من النظم القائمة على الاستعباد Despotic الى نظم تعرف صورة من صور الحكم الديموقراطى (٤٩) ٠

أما جماعة الشرق الأوسط فانها تنظر الى الموضوع من زاوية أخرى ٠ حقيقة أنها تعتبر المجتمعات الغربية المتقدمة بمثابة النمط المثالى للمجتمعات الذى يجب أن تصل اليه مجتمعات الموزايكا ٠ ولكن نجد أن نيوفانهويزه يؤكد على استمرارية الطابع التقليدى لمجتمعات الشرق الأوسط، برغم دخول بعض العناصر الحديثة ٠ وكأن أمام هذه المجتمعات طريقا طويلا قبل أن تصل الى الصورة المثلى التى يظهر فيها نوع من التدرج الطبقى ونوع من النظام السياسى الذى لا تتحكم فيه الصفوة ٠ غير أن بعضهم مثل ايليا حريق يهتم بدخول العناصر الثقافية الحديثة الى هذه المجتمعات وتأثيرها على نظام الموزايكا القائم على ما رأينا منذ قليل ٠ واذا كان حريق يرى فى تحول النظام السياسى الى الاطار الديموقراطى نمطا مثاليا يجب أن تصبو اليه مجتمعات الموزايكا ، الا أن الديموقراطية فى هذه المجتمعات لا يمكن أن تقوم على أساس التنافس الحر بين جماعات متعددة كما هو الحال فى المجتمعات الغربية ، وانما تقوم على شكل من أشكال الهندسة الاجتماعية لتحقيق التوازن بين الجماعات العرقية المختلفة ٠ انها ديموقراطية من نمط خاص فى مجتمع من نمط خاص ٠

على أن الشىء الذى يجب أن نلتفت اليه الآن هو مدى انعكاس هذه الافكار النظرية على البحوث الامبيريقية ، التى أجريت فى المجتمعات الريفية فى العالم الثالث ومدى امتداد تأثير هذه النظرية الى البحوث التى تجرى على القرية المصرية بصفة خاصة ٠

ثالثا : اتجاهات البحث الامبيريقى حول جماعات الصفوة فى الريف

اتجه البحث الامبيريقى الذى يتخذ من نظرية مجتمع الموزايكا التعددى اطارا مرجعيا ، اتجه اتجاهين رئيسيين : الأول هو التأكيد على الانقسام

---

(٤٩) Van Den Berghe, op. cit., p. 77.

العرقى فى المجتمعات المحلية ، وابراز الارتباط القائم بين السيطرة السياسية والانتماء الى أقوى الجماعات العرقية القائمة أو أقوى البدنات فى حالة التركيز على الانقسام بين قبائل أوبدنات مختلفة داخل المجتمع • أما الاتجاه الثانى فقد اهتم بمشكلات التكامل داخل مجتمع الموزايكا التعددى • وتتراوح مجالات الاهتمام هنا بين التشكيك فى امكانية قيام تكامل فى مثل هذا المجتمع الانقسامى وبين من يؤكدون امكانية قيام هذا التكامل سواء من خلال الحراك الاجتماعى أو من خلال فرض نسق قيمى مركزى يستهدف تعبئة الاقاليم الريفية المنعزلة سياسيا وضمها الى الاطار الاقليمى • ونعرض فيما يلى لامثلة من البحوث الامبيريقية التى ظهرت تحت هذين الاتجاهين :

(أ) الصفوة والانقسام العرقى :

لاشك أن الاهتمام بالربط بين هيمنة الصفوة وبين أقوى الجماعات العرقية يضرب بجذوره فى بدايات نظرية مجتمع الموزايكا • فدراسات فيرنفال على مجتمعات جنوب شرق آسيا تعد بمثابة بحوث امبيريقية تؤكد هذه الفكرة • كما أن دراسة كارلتون كون عن مجتمعات الشرق الأوسط تحوى الكثير من البيانات الامبيريقية التاريخية التى تؤكد فكرة تقسيم العمل العرقى • وبالتالى تقسيم المكانات ومجالات النفوذ • ولقد تأكدت الفكرة من خلال بعض الاشارات الامبيريقية للباحثين الذين طوروا هذا الاتجاه فى شكله النظرى • ولقد ظل هذا الاهتمام قائما حتى وقت قريب برغم ظهور الاهتمام بمشكلات التكامل داخل مجتمع الموزايكا بدلا من مشكلات الانقسام • ولقد اتضح ذلك من خلال مجموعة من الدراسات نشرت عام ١٩٧٠ عن « **جماعات الصفوة فى جنوب آسيا** » (٥٠) • وتهتم احدى هذه الدراسات بتركيب الصفوة

---

(٥٠). E. Leach and S. Mukhergee (eds.) **Elites in South Asia**, Cambridge, At the University Press, 1970.

فى القرى الهندية (٥١) ٠

حاولت هذه الدراسة أن توضح الارتباط بين البناء الطائفى القائم وبين البناء الطبقى ، وانحدار الصفوة السياسية من أقوى الطوائف وأشدها هيمنة على الأرض ٠ وبرغم انتشار التعليم والنظام البرلمانى الديموقراطى ، الا أن العلاقات بين الطبقات وبين الطوائف لم يتغير كثيرا ٠ بل ان الطوائف المسيطرة استغلت الحداثة فى احكام سيطرتها أكثر وأكثر على القرى وذلك من خلال ارسال أولادها الى المدارس ودفعهم الى حلبة الصراع الديموقراطى ٠ ويطلق على الشخص الذى يحتل مركزا مؤثرا وسلطة مؤثرة لفظ « الدورا » dora وهو لفظ يعنى « السيد » أو « اللورد » ٠ ولكى يستحق الشخص هذا اللقب لابد أن يكون له سيطرة على الافراد والملكية ٠ وهو يكتسب سلطته هذه بحق الولادة ، وهو من احدى الطوائف المسيطرة وأقواها ان لم تكن أشدها قوة على الاطلاق ٠ ويقوم الافراد الذين يأخذون هذا اللقب بالخدمات التقليدية فى القرية ٠ وهم يمثلون الصفوة السياسية التى تحقق التوازن بين الطوائف جميعا ٠ وغالبا ما يكون « الدورا » مالكا للأرض ، ومقرضا للنقود money lender ، وموظفا بالقرية ، وممثلا الحكومة ، ورجل سياسة ٠ وتكون مهمة الصفوة من هؤلاء الناس تسوية الخلافات التى تنشأ بين القرى ، والتى تنشأ بين الطوائف فى القرية الواحدة ٠ وهى تستعين فى ذلك بشخص كبير السن من كل طائفة ، فضلا عن استدعاء بعض كبار السن من المحايدين ٠ وتتميز الدورا عن بقية الفلاحين فى مساكنها وأسلوب حياتها ٠ وهم يختلطون بعضهم بالبعض الآخر ، وقلما يختلطون بالآخرين من الطوائف الأخر ٠ ولا يدخل أى فرد من الدورا منازل الفلاحين ، وهو يتصل بهم ـ ان أراد ـ من خلال وسيط ٠ ولم تؤد الديموقراطية الى ادخال طوائف أخر الى نطاق الممارسة السياسية ٠ فالقرويون يصوتون للدورا

---

(٥١) Hugh Gray, «The Landed Gentry of the Telengana, Andhra Pradesh» in Ibid.

تحت تأثير كبار السن من كل طائفة ، الذين يتم التفاوض معهم من جانب الدورا قبل كل انتخاب ، والاتفاق على أخذ جميع الأصوات • وقد حلل الباحث نتائج انتخابات ١٩٥٢ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٢ ووجد السيطرة الكاملة للدورا فى هذه الانتخابات الثلاثة ، الأمر الذى يشير الى السيطرة المطلقة لها •

ولقد اكد بعض المهتمين بدراسة المجتمع المصرى على الربط بين السيطرة على النظام السياسى والتحكم فى الممارسة السياسية وبين اقوى العائلات او البدنات فى القرية • واتضح ذلك ـ على سبيل المثال ـ من خلال دراسة هارولدبراســـلى Harold Braclay على قرية مصرية عام ١٩٦٦ (٥٢) • وهى دراسة مونوجرافية لقرية « كوم العرب » التابعة لمحافظة الجيزة ، وهى قرية تعرف نظاما انقساميا بين مجموعة من البدنات • وفى حديثه عن النظام القرابى والنظام السياسى فى القرية ذهب براسلى الى القول بأنه من الصعب أن نعثر على طبقات اجتمـاعية فى هذه القرية ، فالتدرج يقـوم على تدرج لجماعات المكانة التى ترتبط بهيبة ومرتبة كل بدنه من البدنات المكونة للقرية• وتتحدد الهيبة النسبية للبدنة من خلال قدرة أفرادها على أن يفرضوا ارادتهم على الآخرين • فالبدنة التى تكسب المعارك التى تنشأ مع البدنات الأخر تستطيع أن تحتل مكانة أعلى من البدنة التى تنهزم فى هذه المعارك (يتضح هنا محاولة فصل المكانة عن أصولها الاقتصادية) • ووفقا لهذا الميكانيزم يوجد فى قرية « كوم العرب » اثنتان من البدنات ، تعدان أقوى وأعنف البدنات الموجودة • ولا تلعب الثروة دورا كبيرا فى تحديد مراتب البدنات ، غير أن الواقع يكشف عن أن أكثر العائلات احتراما وهيبة هى أكثر العائلات امتلاكا للعبيد والأرض • وتسيطر أقوى العائلات على النظام السياسى فى القرية ، فمنها عمدة القرية محرر هذا النظام • وقد كشفت الدراسة عن أن منصب

---

(٥٢) H. Braclay, «Study of An Egyptian Village Community», Studies in Islam, Vol. 3. No. 3-4, 1966.

العمدة قد ظل فى أسرة واحدة طيلة ثلاثة أجيال متتالية · ويتم حل الخلافات التى تنشب داخل كل بدنة من خلال قانون عرفى يطبقة الكبار ، أما الخلافات التى تنشأ بين البدنات ـ والتى قد تؤدى الى انهيار حقيقى فى نظام القرية ـ فانها تحل من خلال وساطة يقوم بها أحد كبار البدنة المسيطرة ، الذى يستعين بمعاونين من كبار السن فى البدنات الاخر · وغالبا ما يتم فرض عقاب مالى على البدنة المعتدية · ويهدف النظام السياسى والممارسة السياسية الى خلق توازن بين البدنات المنقسمة ، وكان وجود هذا النظام وتلك الممارسة يعد بمثابة شرط ضرورى لتحقيق التكامل فى هذا المجتمع الانقسامى ·

(ب) مشكلات التكامل فى مجتمع الوزايكا :

لا شك أن مجتمع الوزايكا يعرف شكلا تقليديا للتكامل يقوم على تحقيق توازن بين مكوناته البنائية من خلال سلطة أقوى جماعاته العرقية· ولكن مع تحول هذا المجتمع الى الصورة الحديثة بناء على احتكاكه بثقافات أخر ، أهمها على الاطلاق الثقافة الغربية ، بدأ هذا الشكل التقليدى للتكامل فى الانهيار · وكان على الوحدات الريفية المنعزلة أن تندمج فى الاطار القومى ، وكان على كل جماعة عرقية أن تتخلى عن تعصبها الاقليمى والثقافى بحيث يتحقق قدر من التجانس البنائى ـ الثقافى فى المجتمع · وفى هذه الظروف بدأ البحث الامبيريقى يتجه نحو دراسة مشكلات هذا التكامل ، والاساليب المستخدمة فى تحقيقه ·

واتجهت بعض هذه الدراسات الى التشكيك فى امكانية تخلى الجماعات العرقية عن هويتها وفى امكانية ربط القرى بالاطار القومى · من هذه الدراسات دراسة روبرت تايس Robert Tice عن ساحل العاج (٥٣) · يشكك هذا

---

(٥٣) Robert T.ce, «Administrative Structure, Ethnicity, and Nation-Building in the Ivory Coast», J.M.A.S., Vol. 12, No. 2. 1974 pp. 211-229.

الباحث فى امكانية قيام تكامل فى مجتمعات افريقيا ، ويؤكد على أنه بالرغم من تأكيد بعض الباحثين على انحسار الانقسامات السلالية أمام التكامل الذى صاحب ظهور الدول الحديثة ، الا أن الواقع وأنماط التفاعل القائمة فيه لايكشفان عن وجود مثل هذا التكامل • ويضرب الباحث مثالا لذلك من قرية Djakoteti التى ظهر داخلها انتماء عميق للثقافة القبلية ـ العرقية السائدة فيها الى درجة أن بعض سكانها ليس لديهم وعى بوجود شىء يسمى « ساحل العاج » • ويستخلص الباحث من دراسته أنه بالرغم من الجهود المستميتة التى تبذلها الحكومة لتجاوز الانقسامات العرقية والقضاء عليها ، الا أن الواقع يكشف عن أن اهل القرى يتوحدون مع نظمهم وثقافتهم الاقليمية ، وليس لديهم أدنى ميل للتوحد مع السلطة المركزية الجديدة • وعلى نفس المنوال نسجت دراسة أخرى اهتمت بدرجة تكامل جماعة الايبو Igbo كجماعة عرقية فى مجتمع نيجيريا (٥٤) • ويهتم الكاتب هنا بما يطلق عليه « دياسبورا » Diaspora الايبو (أى انتشارهم وتكاملهم مع المجتمع النيجيرى من خلال الهجرة الداخلية التى تتحكم فيها عوامل الطرد والجذب التى تميز بلدان العالم الثالث) • وبرغم تزايد الهجرة الداخلية للايبو الا انهم لا يتخلون ـ أينما كانوا ـ عن هويتهم العرقية • فالمهاجر لا ينسى المكان الذى ولد فيه ، بل ان علاقاته لا تنقطع أبدا مع هذا المكان ، فالهجرة لا تمثل الا حادثة عرضية تفرضها ضرورات اقتصادية • ويؤدى ذلك ـ بطبيعة الحال ـ الى مزيد من الانقسامية فى المجتمع ككل وفى وحداته الاقليمية بصفة خاصة • بل ان النظام السياسى الداخلى لجماعة الايبو يعضد من هذه الانقسامية • فكل جماعة تتكون من عدة مئات من الافراد تدعى أنها وحدة سياسية مستقلة ، الأمر الذى يولد مزيدا من الانقسام الداخلى • ولا يقبل الايبو من سكان القرى أى

---

(٥٤) Chukuemka Onwubu, «Ethnic Identity, Political Integration and National Development : The Igbo Diaspora in Nigeria», J.M.A.S. Vol 13, No. 3 1975, pp. 399-413

شكل من أشكال السلطة اللهم سلطة كبار السن الذين يشكلون مجلسا يستطيع أن يفرض أحكامه على الجماعات المنقسمة • ولا يستمد كبار السن سلطتهم من أساس قانونى ، وانما يستمدونها من أساس عرفى يرتبط بقدرتهم على اسداء النصح وتقديم الاستشارة •

وبرغم ذلك فقد اتجهت بعض الدراسات الأخر وجهة أخرى حيث حاولت ابراز بعض خطوط التكامل فى المجتمع التعددى الذى يتعرض لتحولات فى بنائه الاجتماعى • فقد أكدت احدى الدراسات التى أجريت على أحد المجتمعات المحلية فى جنوب افريقيا (٥٥) ، اهمية الحراك الاجتماعى فى تحقيق هذا التكامل • فقد نفذت الجماعة العرقية المسيطرة ـ وهى الجماعة البيضاء ـ سياسة عزل المجتمعات السوداء • ولكن تحول المجتمع من الاطار التقليدى الى الاطار الحديث قد أدى الى ظهور فئة جديدة ـ صفوة جديدة ـ من السود الوطنيين ، لم يدخلوا فى صراع مع الجماعة المسيطرة ، وانما توافقوا ـ من ناحية ـ مع سياسة العزل ، وتعاونوا من ناحية أخرى مع الجماعة العرقية المسيطرة بحيث ظهر بينهما قدر من الاعتماد المتبادل • وتتكون هذه الصفوة الجديدة من المهنيين وموظفى الحكومة ، والمديرين والمنظمين الذين يعملون لحسابهم الخاص • ولقد تحركت هذه الصفوة الجديدة خطوات كبيرة صعودا على سلم الحراك الاجتماعى • وقد أدى الحراك الاجتماعى لهذه الصفوة الى مزيد من التكامل داخل المجتمع ككل • ويظهر الحراك الاجتماعى هنا وكأنه الميكانيزم الرئيسى لتحقيق التكامل • فعن طريقة تلتئم القرى والمدن المنعزلة مع البناء الكلى للمجتمع • والصفوة الجديدة هى ـ اولا وأخيرا ـ الأداة الفاعلة فى هذا الميكانيزم •

---

(٥٥) Mia Brandel-Syrier : **Reeftown Elite : Social Mobility in a Black African Community on the Johannesberg Reef,** African Publishing Corporation, N.J., 1971.

ولاشك ان المجتمعات التى لا تعرف نظام العزل العنصرى قد تختلف فى ميكانيزمات تكاملها • ويرتبط أحد الميكانيزمات الشهيرة لدى الباحثين فى هذا الاتجاه بالتعبئة السياسية التى تمارسها السلطة المركزية بهدف ربط القرى النائية والمنعزلة بالاطار القومى • ولقد اتضح من خلال الدراستين اللتين عرضتا فى بداية الفقرة مدى فشل الحكومات المركزية فى تحقيق ذلك• ومع ذلك فان بعض الدراسات تؤكد عملية التعبئة السياسية كأساس لتحقيق التكامل القومى فى مجتمع الموزايكا • ولقد كان هذا هو المنطلق الذى انطلقت منه دراسة ايليا حريق عن قرية مصرية (٥٦) • ذهب حريق فى هذه الدراسة الى القول بأن التغير فى المجتمع الريفى يأتى من تفاعل عوامل داخلية وخارجية • فهو وان كان نتيجة فرض أو نشر قيم مركزية ، الا أنه يرتبط أيضا بدرجة استجابة القرويين لهذه القيم وتعاملهم معها • ولقد أدت التغيرات التى حدثت فى المجتمع المصرى منذ بداية الخمسينيات الى ظهور أيديولوجية قومية بدأت الصفوة القومية فى فرضها على كل المجتمع • وفى هذه الظروف بدأت القرى المنعزلة تخضع لهذه الايديولوجية • وأصبح النسق السياسى القومى هو النقطة المرجعية للسلوك السياسى والاقتصادى للفلاحين المصريين• غير أن البحث يكشف عن استعداد لدى الفلاحين لقبول هذا النوع من التعبئة السياسية ، الأمر الذى جعل ما يبثه النسق السياسى المركزى الى مجتمع القرية سريع الانتشار والتأثير • ولقد أدت التعبئة السياسية المركزية الى ربط المجتمع الريفى – على هذا النحو – بالمجتمع القومى • وترتب على العملية برمتها تغير فى نمط السلطة فى المجتمع الريفى • فظهرت فى هذا المجتمع الريفى صفوة جديدة أخذت بزمام الأمور من الصفوة القديمة التقليدية • وبدأ توزيع القوة يصبح أكثر انتشارا على جماعات مختلفة • وفى هذه الظروف ظهر تناقض بين بناء القوة على المستوى المحلى الذى يظهر فيه قدر من الانتشار وبين بناء القوة على المستوى القومى الذى يتركز فى أيدى فئة

---

(٥٦). I. Harik, The Political Mobilization of Peasants, op. cit.

قليلة من الناس • وهكذا يولد التكامل داخل مجتمع الموزايكا تناقصا من نوع جديد •

وهكذا جسدت هذه الدراسات الامبيريقية بعض القضايا النظرية التى أثارها أنصار نظرية مجتمع الموزايكا التعددى • والسؤال الذى يطفر الى الذهن الآن : الى أى مدى يتمتع هذا الاتجاه بالصدق الامبيريقى ؟ وبعبارة أخرى : الى أى مدى يصبح هذا الاتجاه ملائما لتفسير بناء الصفوة فى مجتمعات العالم الثالث ؟ الاجابة على هذا السؤال هى موضوع الفقرة النقدية القادمة •

رابعا : نقد نظرية مجتمع الموزايكا

يبدو أن نظرية مجتمع الموزايكا التعددى تميل هى الأخرى نحو التحليل المعيارى ، طالما أنها تضع صورة المجتمع الغربى كنموذج مثالى • غير أن مشكلات هذه النظرية أكبر وأعمق من المشكلات التى يثيرها التحليل المعيارى•

فقد أدت المضامين الأيديولوجية الكامنة فى هذه النظرية الى تحويل بؤرة اهتمام التحليل السوسيولوجى الى ظواهر ليستحاسمة فى تشكيل البناء الاجتماعى ، وهى ان أثرت فهى سطحية اذا قورنت بالظواهر التى سببت وجودها أساسا • وسوف يستهدف هذا النقد تأكيد الحقيقة التى مؤداها أن هذه النظرية قد فشلت فى تقديم بديل نظرى كاف لتحليل البناء الاجتماعى السياسى لمجتمعات العالم الثالث ، كما أنها لا تتمتع بالصدق الامبيريقى الا فى المجتمعات التى تصبح فيها الانقسامات العرقية على درجة كبيرة من الحدة ، وحتى فى هذه الظروف فان التفسير الذى تقدمه هذه النظرية لا يبرز الهيمنة السياسية الاقتصادية لجنس معين بقدر ما يبرز دوره فى تحقيق التكامل داخل المجتمع الانقسامى • ولا شك أن السبب الكامن خلف هذا القصور النظرى ، يرجع الى فرط اهتمام أنصار هذه النظرية بالتحليل المعيارى ، فضلا عن اهتمامهم بالمشكلات الصغرى minor issues للبناء الاجتماعى ورد البناء برمته الى هذه المشكلات ، الأمر الذى أدى الى ضحالة

تفسيرهم للمشكلات الكبرى كمشكلة الطبقة ، والقوة ، والسلطة ، والصراع وغيرها ٠

١ ــ يصف أنصار هذه النظرية ــ خاصة مجموعة افريقيا ــ نظريتهم بانها « نظرية صراع » Conflict theory في مقابل نظرية « التوازن » equilibrium theory ، وهم يعتقدون بذلك أنهم حققوا تقدما نحو صياغة نظرية عامة للمجتمع التعددى ، تتفوق فى عموميتها على الصياغات المبكرة لهذه النظرية كما جاءت فى أعمال فيرنفال ٠ غير ان هذا الادعاء قد جرف هذه النظرية الى بؤرة التحليل المعيارى المرتبط بنموذج التوازن ٠ فالواضح من العرض السابق أن التقدم الوحيد الذى حققته هذه النظرية على صياغة فيرنفال هو القول بأن كل المجتمعات تعرف صورة من صور التعددية ٠ والمحقق أن هذا التقدم قد شوه صياغة فيرنفال أكثر من كونه قد أكسبها طابعا عاما ٠ فقد ذهب أحد النقاد الى القول بأن النظرية فشلت فى تطوير عنصرين هامين فى صياغة فيرنفال : الأول : التأكيد على الجانب الاقتصادى وعلاقات السوق فى المجتمع التعددى ، والثانى : التأكيد على انطباق فكرة المجتمع التعددى على مجتمعات بعينها ، دون المجتمعات الأخرى (٥٧) ٠ وانصب الاهتمام بدلا من ذلك على محاولة تعميم فكرة المجتمع التعددى الذى يقوم على الانقسام العرقى على مجتمعات كثيرة ، مع التفرقة بين أنماط مختلفة للمجتمع التعددى وفقا لدرجة التكامل وعمومية القيم ٠ وقد أدى ذلك بهم ــ على ماذهب ناقد آخر ــ الى تشييد نموذج مثالى واختباره فى الواقع كنظرية، الأمر الذى أدى الى اختلاط الوصف بالتفسير ٠ والتناقض بين الصياغة المعيارية والواقع ، والاهتمام بجوانب الضبط الاجتماعى أكثر من الاهتمام

---

(٥٧) B. Magubane, «Pluralism and Conflict Situation in Africa: A New Look», Af.S.R. Vol. 7, June, 1969, p. 541.

بتحليل الجوانب الاجتماعية للمجتمع التعددى (٥٨) ٠

اذا كان القول السابق يصدق على مجموعة افريقيا ، فماذا عن مجموعة الشرق الأوسط ؟ الواضح من العرض السابق أن مجموعة الشرق الأوسط لم تبذل جهدا فى المقارنة بين أنماط متعددة من مجتمع الموزايكا ، غير ان هذه المقارنة كامنة فى صياغتهم على أى حال ٠ ويبدو أن مجموعة الشرق الاوسط ــ خاصة كارلتون كون ونيوفانهويزه ــ ترى فى مجتمع الموزايكا التقليدى مجتمعا راكدا لا يصيبه التغيرالا ببطء شديد ٠ وقد أدى هذا الى مغالطة من نوع آخر ، تنحصر فى وصف المجتمع التقليدى فى العصر الحديث بنفس الطريقة التى وصفه بها ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر (٥٩) ٠ وكأن هذا المجتمع لم يتعرض لأى تغيرات ، وأن تنظيمة الاجتماعى التقليدى من الصعب أن يتحول الى الصورة المثلى للمجتمع (الغربى)٠فمن المعروف أن ابن خلدون قد ركز فى المجتمعات التى كتب عنها (ومنها بعض مجتمعات الشرق الأوسط التى تحدث عنها أنصار نظرية مجتمع الموزايكا) على الانقسام بين أهل البداوة ، وأهل الزراعة ، وأهل الحضر ٠ ولقد تحدث عن الجماعات والعصبيات بشكل يكشف عن انقسام وتعددية ظاهرين فى هذه المجتمعات « فأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضا الى أن يكونوا لحما وقرابة وتجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر فيتفرقون شيعا وعصائب » (٦٠) ٠ ومن المدهش أن نجد ابن خلدون

---

(٥٨) M. Cross, «Cultural Pluralism and Sociological Theory», S.E.S, Vol. 17, No. 4, 1968, pp. 375-397

(٥٩) وبرغم التشابه الواضح بين صياغة ابن خلدون وصياغة نيوفانهويزه وكون الا أن هذين الباحثين لا يشيران اليه من قريب أو من بعيد ، ويقدمان صياغتهما النظرية على أنها شىء جديد تماما ٠

(٦٠) ابن خلدون ، **المقدمة : الجزء الأول من كتاب العبر** ، مطبعة التقدم بشارع محمد على بمصر ، ١٣٢٩ هـ ٠ ص ٤١٦ ٠

يشير اشارة صريحة الى ما أطلق عليه انصار نظرية الموزايكا فيما بعد « تقسيم العمل العرقى » عندما كتب فصلا « فى اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض » ، حيث يعمل أهل كل مصر فى صنعة معينة وفى عمل معين « فيقومون عليه ويستبصرون فى صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه » (٦١) بل ان ابن خلدون يصور النظام السياسى فى المجتمع بنفس الاسلوب الذى تحدث به هؤلاء الباحثون المعاصرون • ولنقتبس من ابن خلدون باستفاضة فى هذا المجال :

« ان كل حى أو بطن من القبائل وان كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضا عصبيات أخرى لانساب خاصة هى أشد التحاما من النسب العام لهم •• والرياسة فيهم انما تكون فى نصاب واحد منهم ولا تكون فى الكل • ولما كانت الرياسة انما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصبيات ليقع الغلب لها وتتم الرياسة لاهلها فاذا وجب ذلك تعين أن الرياسة لا تزال فى ذلك النصاب المخصوص أهل الغلب عليهم اذ لو خرجت عنهم وصارت فى العصائب الأخرى النازلة عن عصابتهم فى الغلب لما تمت لهم الرياسة • فلا تزال فى ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم الى فرع ولا تنتقل الا الى الأقوى من فروعه لما قلنا من سر الغلب لان الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج للمتكون والمزاج فى المتكون لا يصلح اذا تكافأت العناصر فلابد من غلبة أحدها والا لم يتم التكوين فهذا سر اشتراط الغلب فى العصبية ومنه تعين استمرار الرياسة فى النصاب المخصوص بها كما قرره » (٦٢) •

ولا يحتاج الاقتباس لأى تعليق لايضاح أوجه الشبه بين أفكار ابن خلدون وأفكار أنصار نظرية مجتمع الموزايكا من مجموعة الشرق الأوسط •

---

(٦١) المرجع السابق ، ص ٤١٥ •

(٦٢) المرجع السابق ، ص ١٤٦ •

على أن هذا الشبه لا يهمنا فى ذاته على ما فيـه من دلالة ، وانما الذى يهمنا هنا هو أن أنصار نظرية مجتمع الوزايكا قد نظروا الى مجتمعات الشرق الأوسط فى القرن العشرين نفس النظرة التى رآها ابن خلدون فى القرن الرابع عشر ، وكأن هذه المجتمعات لم تعرف أى ضرب من ضروب التغير أو التحول منذ ذلك التاريخ ، وهذا دليل قاطع على ركود هذه المجتمعات وعدم قابليتها للتحول السريع من وجهة نظر أصحاب هذا الاتجاه · وما أود أن أؤكد عليه هنا هو أن المجتمع الذى يصفه هؤلاء الباحثون لم يعد موجودا الآن، وأن النظرية التى قدموها لا تصف الا مجتمعا كان قائما فى ماضى المجتمع الذى يهتمون به فقط ·

٢ ـ لقد أجمع نقاد هذا الاتجاه على نقطة هامة مؤداها أنه يبسط الواقع الاجتماعى ويقدم تحليلا سطحيا له ، وقد أدى هذا الى اهمال جوانب هامة فى هذا الواقع · وقد كتب أحد النقاد حول هذه النقطة يقول ·

« تمثل نظريات التعددية الثقافية تبسيطا ضخما للواقع ·· فقد تركت أسئلة كثيرة دون اثارة ، وعندما كانت تثار بعض الأسئلة وتقدم لها اجابات أو تفسيرات جزئية فان هذه الاجابات وهذه التفسيرات كانت تميل الى توجيه انتباهنا بعيدا عن أهم المسائل حيوية وجوهرية » (٦٣) ·

كما ذهب ناقد آخر الى أن هذا الاتجاه يعتبر اتجـاها لا تاريخيـا ahistorical يعزل مواقف الصراع فى المكان والزمان بحيث ظهر الصراع العرقى والسلالى وكأنه يعمل فى فراغ بمعزل عن العوامل الاجتماعية التاريخية، أو السياق التاريخى للموقف الاستعمارى فى المجتمعات الافريقية (٦٤) · وكتب ناقد ثالث معلقا على أسلوب التحليل وطابعه فى هذا الاتجاه يقول :

---

(٦٣) M. Cross, op. cit., p. 381.

(٦٤) Magnabane, op. cit, p. 529.

« ان تاسس التحليل على المحكات التى تعرف الجماعة بها نفسها (كالسلالة والدين) والصراع بين هذه الجماعات يؤدى الى اهمال الجوانب التى تحتاج الى تفسير واعتبارها معطيات • وما يحتاج الى تفسير هو لماذا وجدت هذه الجماعات بالفعل ولماذا تدخل فى صراع بعضها مع البعض الآخر • ولفهم هذه الأمور لابد من تحليل الظروف التى تولد انماطا معينة من الصراع، وتلك التى تؤثر فى طبيعة ودرجة شدته » (٦٥) •

وكل هذه الانتقادات تشير الى أن الاتجاه التعددى هنا قد ركز على عناصر فرعية وثانوية واهمل الجوانب الهامة التى يعتبر تفسيرها اساس تحليل البناء الاجتماعى كالصراع والطبقات وعلاقة ذلك بالقوة السياسية والظروف التاريخية التى افرزت كل هذه العلاقات • واذا حاولنا أن نطور هذا النقد خطوة أخرى، فاننى أميل الى التمييز بين نوعين من المسائل issues المتعلقة بدراسة البناء الاجتماعى : النوع الأول هو المسائل الثانوية minor issues ، والنوع الثانى هو المسائل الأساسية major issues • واقصد بالمسائل الثانوية تلك الظواهر اللاحقة epiphenomena التى ليس لها وجود مستمر فى الزمان والمكان • وهذا النوع من المسائل لا يمكن التعميم عليه ، بل أن أى تعميم يصدر عليها يعتبر غير صادق بالضرورة اللهم الا اذا تحولت هذه المسائل الثانوية ـ ولظروف تاريخية معينة ـ الى مسائل جوهرية • أما المسائل الأساسية أو الجوهرية فهى ظواهر أصيلة sui-generis لها وجود تاريخى فى الزمان والمكان، وهى الظواهر التى يمكن أن يتم التعميم من خلالها دون الخوف من الوقوع فى مواطن الزلل • واذا أخذنا مثالا على هذين النوعين من المسائل فان الحرب تعتبر مسألة ثانوية فى حين أن الصراع الذى قد يولد الحرب يعتبر مسألة اساسية •

---

(٦٥) H. Wolpe, «The Theory of Internal Colonialism : The South African Case» in Oxal et al (eds.) **Beyond the Theory of Development**, Routledge and Kegan Paul, 1976, p. 238.

فالحرب تنشب فى لحظات بعينها فى التاريخ ، وبسبب ظروف تبدو مؤقتة ، وهى محكوم عليها بالانتهاء. أما الصراع فانه يرتبط بجوهر العلاقات الاجتماعية وهو موجود باشكال مختلفة فى كل الفترات التاريخية تقريبا . واذا ما بدا الباحث من ظاهرة الحرب فانه لا يستطيع أن يقدم تفسيرا كافيا لانماط الصراع ، ولكنه اذا بدأ من ظاهرة الصراع فانه يستطيع أن يقدم تفسيرا كافيا لظاهرة الحرب . ويدعونا هذا الى أن نأخذ فى اعتبارنا نقطتين :

(أ) ان مسألة أساسية واحدة لا يمكن أن تقدم تفسيرا كاملا للبناء الاجتماعى برمته ، وانما يجب أن يتم ذلك من خلال توليفة من هذه المسائل .

(ب) ان المسائل الثانوية يمكن أن تصبح فى فترات تاريخية مسائل أساسية ، ولا يمكن ـ فى هذه الحالة ـ تقديم تفسير كاف للبناء الاجتماعى فى هذه الفترة دون الاشارة اليها . وهكذا لا نستطيع أن نفسر الحقبة النازية فى ألمانيا دون أن نشير الى ظاهرة الحرب كمسألة أساسية ، تماما كما لا نستطيع أن نفسر البناء الاجتماعى المعاصر لمجتمع جنوب افريقيا دون الاشارة الى سياسة العزل العنصرى كمسألة أساسية .

واذا حاولنا تطبيق هذا على مقولات نظرية مجتمع الموزايكا ، فاننا نجد أن الانقسامات السلالية والعرقية ليست من المسائل الأساسية التى توجد فى كل المجتمعات فى كل زمان بحيث يمكن من خلالها صياغة نظرية عامة عن المجتمع . وفى هذه الحالة فان رد كل عناصر البناء الاجتماعى لهذه الانقسامات لن يقدم الا صورة مشوهة عن هذا البناء وأكثر من هذا فان مثل هذا التحليل سوف يطمس المسائل الأساسية التى تحتاج الى تفسير والتى أشرنا الى بعض منها منذ قليل ، وهى من المسائل الأساسية التى يمكن التعميم عليها بحق . بل البدء من هذه المسائل الأساسية كفيل هو نفسه

بأن يلقى الضوء على المشكلات السلالية كما أشار النقاد الذين أوردت آراءهم في مكان سابق من هذا التحليل النقدى · فدراسة الصفوة أو بناء القوة ـ على سبيل المثال ـ من خلال فكرة الانقسام العرقى يظهر الصفوة وكأنها تعمل فى فراغ ، أو كأنها مقطوعة الصلة بالبناء الاجتماعى الذى تحقق التكامل فيه وهى الوظيفة المنوطة بالصفوة فى هذه الصياغة النظرية · والأمر يختلف اذا بدأت الدراسة من منظور مغاير كأن تبدأ الدراسة من علاقة الصفوة بالبناء الاقتصادى ـ القيمى فى المجتمع أو من علاقة الصفوة بالتركيب الطبقى ، أو بالظروف التاريخية التى شكلت البناء الاجتماعى على نحو معين · فى مثل هذه الحالة، فان التحليل سوف ينتهى الى نتائج مغايرة · وفضلا عن ذلك فان المشكلات الفرعية المتعلقة بالانقسام العرقى قد تبرز فى أثناء هذا التحليل دون اعتبارها مشكلات حاسمة فى تشكيل البناء الاجتماعى ·

ولا يقلل من أهمية استبعاد مشكلات السلالية والعرق من التحليل كون مجتمعات العالم الثالث مجتمعات متغيرة ولم تصل بعد الى مرحلة من التجانس الثقافى العرقى كما هو الحال فى الدول المتقدمة · ذلك أن بعض هذه الدول المتقدمة ذاتها لا تزال تعرف مشكلات الانقسام العرقى مثل كندا وبلجيكا وايطاليا والمملكة المتحدة · هذا فضلا عن أن الكثير من مجتمعات العالم الثالث قد تجاوزت مرحلة الانقسام العرقى ، بل ان بعض هذه المجتمعات لا يعرف مشكلات الانقسام العرقى على الاطلاق · فقد أكدت دراسة أجريت على مجتمع بدائى بسيط (جزيرة موريشيوس Mauritius فى المحيط الهنـــدى) أن مفهوم المجتمع التعددى قد فشل فى تفسير التدرج الاجتماعى فى هذه الجزيرة · واكتشف الباحث أن البناء الاجتماعى لهذا المجتمع البسيط قد خضع لعملية تباين بحيث تفوقت التقسيمات الاقتصادية للمجتمع على تقسيماته السلالية، وتحول المجتمع من مجتمع يقوم التدرج فيه على السلالة الى مجتمع يقوم التدرج فيه على الطبقة بمفهومها الاقتصادى (٦٦) ·

---

(٦٦) Burton Bendict, «Stratification in Plural Societies», A.A., Vol. 64, 1962, p. 1244.

ويترتب على هذا التحليل النقدى أن يتكشف القصور النظرى الذى يكتنف هذه النظرية ، الأمر الذى يدعونا الى رفضها وعدم الاعتماد عليها مطلقا فى تحليل أبنية مجتمعات العالم الثالث • ويكفى انها تحمل دعوى ضمنية بانقسام هذه المجتمعات فى الوقت الذى تحتاج فيه هذه المجتمعات الى توحيد الجهود وتكاملها من أجل احداث تغيير جذرى •